

(١)

كتاب المروتين النورية والصرافية

سير النباء من أهل كل علم أوفى أو صناعة --- وتدخل فيها أفكارهم وأعمالهم ومذاهبهم في الحياة --- أهلة حية خالدة ، نفى سورتهم وأشباحهم بالموت وهي باقية بقاء الأكوان .
تجيد مواكب الإنسانية فيها سرّ أنظام معاشها فتسجد في طلبه ، فاذا أدركته وتثلته في أعمالها عاشت به .

وفي سيرة كل نابه أو عظيم ، سرّ من أسرار الخلود نجيا به ، كسر الحياة في النواة .
فكما أن النواة إذا غرست وتمهدّها غارسها بالسقي والتريب تعود شجرة وتُعطي ثمرة ،
فكذلك السرّ الكامن في سير النباء إذا بُحِث وكشف عنه ودلّ عليه ، أستطال معناه في الأذهان ، وأثرت سورته في الألباب ، وعاد إلى عالم الأحياء قوّة محرّكة ، وروحاً موجّهاً ، وعملاً دائماً في صور مختلفة وأشكال شتى .

وهي ، مما تطاول عليها الزمن ، صالحة للبحث والإثارة والنظر في كل زمن ؛ لأن عناصرها جواهرٌ وليست بأعراض ، ولأن أسولها إنسانية خالصة ، وأعيانها قاعة بيمانها الجميلة . ولولا ذلك ، لماتت يموت أصحابها كما يموت كل إنسان أعتيادي لا خطر له في الحياة ، كهؤلاء الذين
عناهم شاعر العصر أحمد شوقي حين قال :

وقد يموت كثيرٌ لا تحسُّهم
كأنهم من هوان الخطب ما وجدوا

والمعلمة مراتب ودرجات مختلفة ، لاشكّ في هذا ، ولها مظاهر متعددة بتمدد المجالي التي تبرز فيها في شكل من الأشكال وعلى صورة من الصور . وهي ليست قوينة أرباب القوة والسلطان دون غيرهم كما يتخيل معظم الناس ، بل لعلها في منأى بعيد عن معظم أرباب القوة والسلطان في جميع العصور ، وتبدو للتعامل الدراكة قوينة واضحة في أشباح المنعورين (عند

(١) شاعرة ألقاها الأستاذ محمد بهجة الأثري نائب الرئيس الأول بدار الجمع في ١١/٣١/١٩٥٦ م .

العامة وأشياء الخاتمة) : من أرباب البلاغات والفنون والعلوم ، ومن اليهم من الرجال الموهوبين الذين هم - في حقيقة الأمر - عصب المجتمع ، وقوام كيانه وأستمراره .

إن مقياس العظمة الحق عند المنكرين ، هو الإنتاج النافع ذو الأثر البليغ في ناحية ما من نواحي الفكر والعمل والحياة ؛ لأنه هو الباقي الخالد بعد الموت وأختفاء الأشباح والصور ، وما عداها فلا قيمة له ؛ لأنه بهر سح خداع زائل ، مثله كمثل السراب في الأرض اليباب ، أو الفساعات التي تظهر فوق متون الشراب فلا تلبث أن تتلاشى .

وفي سيرة كل نابه سر من أسرار القوة والحياة ، نجده يادياً في تراثه العقلي أو العملي ، وفيها أفاد به الإنسانية من خير باقي ممدود الظل وريف .

إن التاريخ هو صنع النباه الموهوبين من الناس ، وتأريخنا حافل من سير النباه الموهوبين بروائع ما كان ليكنون تأريخاً حياً جيبلاً لولا وجودها في مضطربة الواسع الديدس ، فهي موجدته حقاً ، وهي المؤثرة في سيره وأتجاهاته .

في تأريخنا نوابغ لاعداد لهم في جميع شؤون الفكر والحضارة ، غير أننا نجمل حقاً تفهم ؛ لأننا مشغولون عنهم ، ولأن ما كتب عنهم في القديم لا يجلو صورهم الحقيقية ، فمعظمه نبت قصار متفرقة متفككة ، وكتب التراجم العسامة التي تترجم لهم هي كالفهارس التي تصنع للكتب ، تدل على الفصول ولا تشرح الحقائق . ولست أذكر أنني وقعت فيها على أسم نابه ، إلا وجدته في أشتراء آثاره أكبر مما تذكر من أمره أضمافاً مضاعفة .

فاذا زعمت أن تأريخنا عامة ، وتراجم الرجال منه خاصة ، لم يكتب بعد ، لم أبعث . وإلا ، فأين الكتب الممتازة التي تجلو عبقريات آلاف وآلاف من رجال الفكر والأدب والعلم والفن من العرب والمسلمين في مدى أربعة عشر قرناً ؟ وأين السير الخوالد التي توحى إلى قرآنها المعاني النبيلة ، وتحدوهم على الفضائل ، وتطعمهم على عشق العلم والعمل والإنتاج ؟

ليست كتب التاريخ والسير كتب تسلية وإينساس ، ولكنها كتب عظمت وعبير تساق فيها الأخبار لأنواع القدوة ، والأمم الضعيفة المتبقطة التي تفتقد القدوة في الأحياء

كاتب الدولتين النورية والصلاحية

فلا تجدها ، لامناص لها من التماسها في سير صاغة التاريخ .
وليس يعني أمثالنا من مراجعة التاريخ أو كتابته أمر أجل من هذه الوجهة النفسية ،
وكل ما عداها من الجمع والزواية والنقل ، فنوافل وزوائد وإضاعة للعمز : عمر الكاتب وعمر
القاري معاً ، وويح للتأليف من ثرثرة الجماعين ! وقرقرة الفارغين !

* * *

وسيرة عماد الدين السمرقندي الأصبهاني الكاتب — كاتب الدولتين النورية والصلاحية
في القرن السادس الهجري — من السير الوجيهة ، فهي خليقة بأن تدرس وأن يثار الكلام
عليها من الناحية التي يجب أن يصاغ عليها تاريخ الرجال دون غيرها .
وهي في كتب التراجم العامة ، ولست أعظم فضل هذه الكتب ، كأمثالها من سير من
هم أكبر شأنًا وأعظم قدراً من عماد الدين ، باردة لا حرارة فيها ، وجمدة ليس بهما روح
يتحرك .

قيل : إن العماد كانت به فترة إذا نظير إليه ، وجود في النظر والكلام ، فإذا أخذ القلم جاء
بالمجانب فتراً وشعراً ، إذ كان كالأزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار كما وصفه صفية القاضي
الفاضل وزير الدولة الصلاحية وأديب عصره العظيم .

وأقول : وددت لو أن كتب التراجم العامة هذه جانب في ترجمتها له ولغيره ، ما بها من
مثل فترته وجهوده الظاهر ، وقبست من باطنه قبساً يشيع الحرارة في النفوس ، ويذيع النور
في العيون .

* * *

تمجيتني في « شخصية » العماد السكاتب مظاهر أربعة : نشاطه الذهني ودوره العلمي
المجيب طلباً للمسكالم ، ثم بعد همته وإكثاره من الأسفار بين البلاد في شبابه وسكوه لته
وشينخوخته ابتغاءً لحظوظه من الدين والدنيا ، ثم مشاركته القوية للدولة في الحرب الهجومية
الدفاعية العظمى بين الغرب والشرق ، ثم إنتاجه وحرصه الشديد على تقييد خواطره وأفكاره

نجد بهجة الأري

شعراً وثقراً وتحليله التاريخ السياسي والحربي والثقافي لعصره في الأسفار الروائع الضخام ، وهي كلها عناصر موحية وموجهة ، لو أراد كاتب روائي من كتّاب العصر أن يتخيل صورة حية قوية جامعة للفضائل ، ليتخذ منها قرائه قدوة سالحة لحياتهم ، لا أتسع خياله لصورة أجل من هذه الصورة الجامعة لأنبل الخصال والفضائل ، ولما جال قلعه في مطالب أمثل من هذه المطالب العالية التي تتمثل قوية جميلة في سيرة المهدي .

ولقد أعانت المهدي على تسكوين « شخصيته » هذه ثلاثة عوامل :

(أ) نفسه ،

(ب) أسرته ،

(ج) دولته .

وعندي أن العامل الأول هو مكون « الشخصية » الفعلي لكل نابه أو عظيم ، وقديماً

قال بعض العرب :

نفسُ عصامٍ سسوّدتُ عصاماً وعلمتهُ الكُفرُ والإقسامُ

أما العاملان الآخران ، فهما عاملان مساعدان على شيء من زيادة الظهور أحياناً ، ويهون الخطب إذا عُدِمَا مع وجود الأول .

(أ) وكانت نفس المهدي نفساً عصامية ، لا تتعلق بمظالمية الآباء ، وكل نفس العصاميين هي كذلك ؛ لأنها تملك قوة الاعتداد بمواهبها ، فتستشعر العني عن الاستعانة على الظهور بقوة غيرها وإن كانوا آباءها ، ولا يعنيتها ما يفوتها من مفاد البيت أو الدولة كما يعني ذلك الفقراء من المواهب الذين يلمسون بناء « الشخصية » بالأتسكاء على رميم الأموات ، أو بالأعتماد على بهارج السلطان .

يحسن العصاميون لوجودهم « شخصية » مستقلة ، ويشمرون شعوراً حاداً أنهم - بما يملكون من قوة النفس والسياسة والمعرفة - غنيون عن طلب البهرج الكاذب ، من جاه الأموات أو جاه المناصب ، فيرتفعون بأقدارهم عن الصغار ، ويعتزون في بناء « الشخصية »

كاتب الدولتين النورية والصلاحية

بما يحسنون إبداعه وتخليده من جميل الأفكار وجميل الأعمال .

وأواشك يشعرهم « مركبُ النقص » فقر أنفسهم ، فيلصقهم بالرغام ، وإذا هم يطلبون غناها من جاه الأموات أو جاه السلطان . وقد يظفرون بالكثير من جاه السلطان حين تريف الأوضاع وتزيغ الطباع ، ولكنهم لا يُروونَ أكبر مما هم في حقيقة أنفسهم ، ولا يجديهم ما حُلوه من الشارات والرتب في إثبات « الشخصية » بين الموجودات .
ويعجبني من المهاد ، وهو من أبناء الأُسَر الرقيقة ، أنه تناسى ما حقه من غلو النسب والحسب وجاه البيت والثروة ، وسمت همته إلى خلق المجد لنفسه بنفسه على قدر ما تهيباً له منه في مزدهم الحياة .

هذه النفس المعاصية القوية ، هي أعظم ما أحببته وأكبرته وعظمته منه ، وهي مفتاح « شخصيته » ، بل هي وحدها ووجدته « شخصيته » ومكونها على ما يبزى من ملامح سيرته .

ب) وأسرة المهاد ، من الأُسَر العريقة بأصبهان في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، تميزت بالرئاسة والسؤدد والفضل والسكناية . وظاهر الحال أنها أسرة فارسية ، وقد كنت إخال ذلك حقيقة مسلماً بها ، إذ كان جميع من ترجموا لرجالها من المؤرخين قد أضافوها إلى أصبهان ولم يتعرضوا لتبرها من سلالتها ، فكأنهم وجدوا في هذه النسبة إلى هذه المدينة الفارسية العريقة ما يدل على الأصل الذي تنتمي إليه ، فأكتفوا بالتلميح عن التصريح .

يُشدُّ أنسى وجددت مؤرخاً واحداً بمن وفقت على آثارهم من المؤرخين ، وهو ابن الفوطي ، قد شدت عن هؤلاء جيماً ، فنص في ترجمته للمهاد - في كتابه مجمع الآداب - على تعيين أصله ، فنسبه إلى قريش ثم إلى أصبهان . وابن الفوطي من أوثق المؤرخين وأكثرهم علماً بأحوال فارس ، لطول مقامه فيها ، فإذا صح ما ذكره ، ولا إخاله إلا صحيحاً ، كانت هذه الأسرة في الصميم من النسب العربي .

ولست أجد في هذا غرابة ، فإن هجرة القبائل العربية بعد الفتح الإسلامية في الشرق

محمد بهجة الأثري

قد امتدت إلى الصين ، وتوطن كثير من الأسر العربية المريقة بلاد فارس وغيرها ، ما قرب منها وما بعد ، وأسهبوا إلى الأقوام التي دانت بالإسلام ، وكانت لأجيالهم من بعدهم خؤولة في الأمم المفتوحة .

ومن النوابغ الكبار في هذه الأجيال العربية الفارسية : أبو الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ، والأبيوردي الشاعر المشهور صاحب النجديات والمراقبات ، وها أمويان في الصميم من أمية بن عبد شمس ؛ وبديع الزمان الهمداني الكاتب البليغ وخؤولته في مضر ، والأرتجاني الشاعر وسلفه القديم من الانتصار ، وغيرهم كثير جداً .
فليس ما ذكره ابن الفسوي من نسب أسرة العماد في قريش ببعيد عن الصدق ، وإن أنفرد بروايته بين المؤرخين .

وقد ظهرت هذه الأسرة في العهد السلجوقي . وكانت وثيقة الصلة بالدولة ، فتقلب رجالها في الإدارة والسياسة ، وكان من خصائص رجالها التنوع بالثقافتين العربية والفارسية . ويظهر من استقراء أحوالهم أن العناية بالأدب العربية ورواية الشعر العربي وقرضه أيضاً ، كانت عميقة عند قداماء رجالها .

فقد وجدت جد العماد أبا الرجا حامد^(١) بن محمد يحفظ على ما ذكر سبط ابن الجوزي شعراً البيهقري ودواوين العرب . وحفظ شعر البيهقري ودواوين العرب ممتع عملاً ، فكان السبط بهذه المبالغة أراد أن يذكر بمبالغة أبي الرجا في التوفر على الشعر العربي بمبالغة أستوفى بها حفظه من البلاغة العربية والذوق الشعري ، حتى تسنى له أن يقرض الشعر الجسدي . ومما روي له قوله ، وقد ظرف في البيت الثاني منه :

تولى الجهل وأقطع العتب
ولاح الشيب وأفتضح الشباب
نفسد أبغضت نفسي في مشيبي
فكيف تحببني الخود الكعاب ؟

كذلك وجدت عمه أبا نصر المستوفي المعروف بالعزيز شاعراً فصيحاً ، وكان إلى ذلك

(١) في مرآة الزمان هو عم العماد ، والصحيح جده .

كتاب الدولتين النورية والصلاحية

جواداً محدثاً ، ووزيراً خطيراً ، أختص بالسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، ودبر قوانين الوزارة ، وأرتفع شأنه في الدولة ، ثم عملت الوشايات عمالها في إسقاطه ، فقبض عليه السلطان محمود بهمدان ، وصادره على أمواله ، وأعتقه ، ثم أعاده إلى سابق حظه ، ثم قبض عليه بالمرافق فحبسه في قلعة تكريت . وكان الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وأخوه الأمير أسد الدين شيركوه ، متوآسبي أمير القلعة ، فسدافعا عنه ، فاجدى دفاعهما ، فخنق في الحبس ، وقيل سُم ، وقيل قتل .

وقد كان العهد السلجوقي الذي نبتت هذه الأسرة في ظله من عهود الاضطراب ، وفي عهود الاضطراب قلما يعلو شأن أسرة أو فرد ويسلم من الهنة والبلاء ، ولذلك رأيت رجالاً آخرين من رجال هذا البيت يصادرون على أموالهم ، ويمتقلون أيضاً ، ومن هؤلاء : صفى الدين والد العماد ، وضياء الدين عمه .

ويذكر العماد أن الخليفة الراشد بالله قد استدعى أباه ليوليه الوزارة ، فتعلل عليه ، قال « وكانت الخيرة فيه » ، وذلك ليهوان أمر الوزارة ولما كان يتعرض له الوزراء من سوء البلاء . ولكنه مع رفضه للوزارة حاق به الشر من حيث فرّ منه ، فصودر وأعتقل . قلما أطلق ، خاف من مقامه بأصبهان ، فخرج بأهله إلى العراق طلباً للأمن والسلامة ببنغاز .

لا جرم أن العماد قد ورث من آبائه صفات النفسية وكثيراً من خصائصهم ، وأن عصاميته قد جذبتة إلى انتهاج مسلك أسرته في الرئاسة والسؤدد والسكرانية ، فأفادته ما أستمع به من بعد من حظوظ الدنيا في أكناف الدول التي عاصرها في العراق والشام ومصر .

(ج) وهو قد خدم ثلاث دول من الدول الإسلامية في القرن السادس : دولة الخلافة العباسية ببنغاز ، ثم الدولة النورية بدمشق ، ثم الدولة الصلاحية التي استخلفت الفاطميين على مصر والدولة النورية على بلاد الشام وأمتد ملكها من ديار بكر إلى اليمن . فكانت صفته الرسمية فيها عاملاً مساعداً في بروز « شخصيته » من غير شك ، واكتفى أرى أنه أفاد هذه الدول أكثر مما أفادته ، إنها أعطته المناصب والثراء وهي متع زائلة لا دوام لها ولا بقا ،

محمد بهجة الأري

وأعطائها هو بيان الذي سجل آثارها في الدواوين ، وخلص رجالها بشعره ونثره ، ولهذا أستغلته وعظفت عليه وأكرمته بالمنصب والثناء ، لتكسب بقلمه مثله وجودها التاريخي . وهكذا تتصرف الدول الحكيمة مع الرجال الموهوبين ، بل هكذا يتصرف الأفراد الحكما ، في كل زمان ، كالذي كان من صنيع هرم بن سنان الأري مع زهير بن أبي سلمى مثلاً . وقد روي أن عمر بن الخطاب رأى أحد أولاد زهير فسأله : ما فعلت الخليل التي كساها هرم أبوك ؟ قال : قد أبلاها الدهر ، قال عمر : ولكن الخليل التي كساها أبوك هرم ما لم يُبلاها الدهر - يعني قصائده التي مدحه بها .

وأفاض سيف الدولة على النبي ما أفاض من أموال وهدايا حتى أنزل أفراسه بنعماء مسجداً ، ففني كل ما أعطساه إياه ، وبقيت قصائد النبي في مدحه وأوصاف حروبه مع الروم البيزنطيين دفاعاً عن الوطن العربي خالدة سائرة على كل لسان منذ ألف عام ، وستبقى آلافاً من الأعرام ما بقي العرب والعربية على وجه الزمان .

وقد أبلى الدهر كل ما كسبه العهد من العباسيين ومن الدولتين الثورية والصلاحية ، ودرست هذه الدول وجاءت بعدها دول وأمم ، ولم يُبطل ما كساها به من خلال الخلود بكتبه وشعره ونثره .



تقوم « شخصية » العهد الكاتب على أربعة عناصر تميزت بها حياته ، وبحسب الرأى أن يتوفر عنده مثلها ليضمن إلى خلود اسمه في سجل الخالدين .

(١) أول هذه العناصر ، نشاطه الذهني ودوره على الطلب والتحصيل من لدن نشأته إلى وفاته ، وهو قد عمّر ثمانية وسبعين عاماً وبلغ ما بلغ من المنزلة في العلم ورتب الدولة ولم ير نفسه إلا طالباً من الطلاب .

وقد ولد في منتصف سنة ٥١٩ هـ بمدينة أصبهان ، وكان فيها منشؤده ومرماه الأول في صباه . وكانت أصبهان من أهم مراكز العلم في المملكة الإسلامية العظمى ، ثم أجنحتها في العصور

كاتب الدولتين النورية والصلاحية

الوسطى موجةُ الفساد والخراب ، من دعاة الدعوة الباطنية القرمطية ، فرأى المهاد أشياء من مقدّماته وصوراً منكراً للفساد السياسي الذي تعرض رجال بيته لشره ، كما أدرك فيها أعقاب النشاط العلمي الحادّ الذي تفرّدت به هذه المدينة الفارسية ، أو كادت . وقد وجد فيما سمعه من أخبار أعيان العلماء والأدباء وأئمة العربية ، الذين أخرجتهم مدينته ، وفيما رآه من سيرة أهل بيته في المراوة والرئاسة والفضل والكتابة ، ما حبّب إليه المثال الذي أحفظوه في الحياة . . .

وكان من سنّة أهل بيته التمسك في تعليم أطفالهم وأخذهم بالسيرة العالية في العلم والأدب ، فدفعوه إلى التعلّم صبياً ، وأقرّوه القرآن والحديث وها يُشربان قلب قارئها حُب التوحيد والوحدة ويحبّان المرء مزالق المصيّبات المذهبية . وقد سمع المهاد الحديث وهو في السادسة من عمره أو دونها ، سمع من الفُراوي النيسابوري وأبن الحسين وأجازاه . وقد يلوح هذا شيئاً غربياً في زماننا ، ولكن إسماخ الصغار كان مألوفاً في المصور القديمة تخرّجاً للتأثّر بأداب النبوة وتقديراً للسند ، فقد سمع الحافظ ابن عساكر الدمشقي وأبن الجوزي البغدادي وها في مثل سن المهاد ، وسمع الحميدي من كبار تلامذه ابن حزم الأندلسي وهو في الخامسة ، بل سمع أبو بكر بن شيرويه مُسنّداً خراسان وهو في الرابعة ، وهكذا غيرهم قبلهم وبعدهم .

كذلك أخذ المهاد في صباه يتعلّم الفارسية والعربية . وهو في تعلم العربية مدين لبغداد . أولاً وآخراً ؛ لأنه تلقّاها أولاً ما تلقّاها على أديب بغدادي كبير هو ابن الأخوة الشيباني ، أقام بأصبهان أربعين عاماً ، وكان المهاد يُشيد كثيراً بفضله وبأدبه وشعره .

وأما ورد بغداد مع أبيه ، وهو في السنة الخامسة عشرة من عمره ، انتظم في سلك طلاب المدرسة النظامية ، فثقف النحو واللغة والأدب ، وسمع الحديث ، ووعى الفقه على مذهب الإمام الشافعي لأنه مذهب أهل بيته ، وأتقن الخلاف والأصول ، ودرس العلم الرياضي ، وأستغلّ محل أقليدس . وأقام كذلك ثلاث سنين للتفقه في المدرسة الشافعية ، وحرص على اكتساب ثقافات عصره في جميع فروعها ، فلم يقف عند حدود ما يتلقاها في المدرسة النظامية والثمينة من شيوخه مع جلال أقدارهم ، بل كان يتعدّى ذلك إلى غيرهم من العلماء الفحول ،

محمد بهجة الأري

وإلى حلقات المناظرات ومجالس الوعظ المتعاقبة ، فبتتبعها وترصد أوقاتها ، يشهدنا ،
 ويفيد منها العلم والرأي ومناهج الجدل بين العلماء ، هذا الجدل الذي بلغ الغاية من القوة والبراعة
 في عصره ، ويعتق ما يسمعه من الفوائد والغرائب في هذه الحلقات والمجالس .
 ثم هو بعد أن أتفق زمناً في التحصيل ببغداد ، عاد إلى أصبهان مع أبيه في سنة ٥٤٣ هـ
 في زي طلبه العلم ، وإذا هو بواصل الدرس والتحصيل ، فبتفقه بها على الحنفي والوركاني .
 ولبت في أصبهان إلى سنة ٥٥١ هـ . ثم قدم مع أبيه ثانية إلى بغداد بنية توطئها ، وإذا هو يعضي
 في سيرته من الدرس والتحصيل ، وإذا هو في هذه المرة ينصرف أنصراً تماماً إلى الأدب ،
 ويتلمذ لثل الإمام أبي الطيب ناقد مقامات الحريري ، ويعاني الشعر والنثر فيبرع فيها ، ثم
 يدأب على تجويدها طوال حياته .

ولم يأنف بعد علو سنه وارتفاع مكانته من الاستفادة من كل إنسان يشيم عنده بركة فعمل
 وأدب . فقد رأته وهو نائب الوزير بالبصرة سنة ٥٥٦ هـ يقرأ كتاب الجمل في اللغة لأبي فارس
 على أديب بصري يقال له أبو الأحرار العمري ، ويسمع مقامات الحريري على أبي الحكيم عن
 الحريري ، كما يسمها على أبي الحريري عن أبيه أيضاً ؛ لأنه وجدته متنقلاً لمقامات أبيه متناً وشرحاً .
 ورأته قد قرأ دواوين كاملة على أصحابها أو غيرهم ممن يتقنها ، فقرأ على الشاعر الأمير أبي
 الفوارس الشهور بمبص بيبص ديوانه ، وسمع جميع شعر القاضي الأرجاني على أبيه ، عنه ، كما
 سمع على الأديب النابه النظري أكثر شعر أبي الطاهر الأموي الأيوبردي . بل رأته ، وقد
 تقدمت سنه وعلا شأنه في الدولتين وأصدر للإفادة والتدريس في مدرسة السلطان نور الدين
 الشهيد بدمشق وأقبل الناس على سماع الحديث عنه وتلقي الفقه وغيره عليه ، يثار على خطبته
 هذه من لقاء كبار الشيوخ للأخذ عنه والسماع منهم . ففي دمشق سمع على الحافظ أبي عساكر
 بعض تأريخه الكبير وهو في ثمانين مجلدة ، وشيئاً من مؤلفاته . وفي مصر سمع بالإسكندرية ،
 وهو في حدود السبعين ، الحديث على الحافظ أبي طاهر السلفي ، وسمع الموطن للإمام مالك
 علي ابن عوف الزهري المالكي ، سمعه عليه مع السلطان صلاح الدين الأيوبي .

وهذا دأب الطبعين على حب المعرفة وأستكمال أسبابها ، يرون أنفسهم أبداً ناقصين فيسمون في تكميلها وتجميلها بحلية الفضل ، لا بأنفون من الأخذ عن كل ذي زادٍ من معرفة ، ولا تفقد بهم السنّ ولا سموت المراتب ولا جلال الأقدار عن متابعة التحصيل . وقد دلت سيرة العباد في هذا الشأن على رجل مثالي في اقتباس أزواد المعرفة ، قليل النظراء في أتمكافه على الدرس والتحصيل .

ب) وثاني عناصر شخصية العباد ، بُعد همتيه ، وإكثاره من الأسفار بين البلاد في شبابه وكهولته وشيوخه ، طلباً للسكال ، وأبناً لحظوظه من الدين والدنيا . ونحن إنما نذكر ذلك ، لأن السفر كان في عهده وإلى عهد قريب ممناً قطعة من سقر كما وصفه القدماء بسبب وعورة الطرق وبطء وسائل النقل البدائية ؛ والإكثار منه مع مشاقه وأخطاره ، دليل علو الهمة وسمو المطمح . وكانت مجالات أسفار العباد ما بين أصبهان ومصر ، ثم جنوباً إلى الحجاز ، وشمالاً إلى بادية الشام والموصل وسنجار وحلب . وقد بدأها وهو ابن خمسة عشر عاماً ، وختمها قبيل وفاته بأيام قليلة وهو ابن ثمانية وستين عاماً .

وفي معنى تنقله يقول :

يوماً بجي ، ويوماً في دمشق ، وبأد
 كأن جسمي وقلبي الصبّ ما خلتما
 فسطاط يوماً ، ويوماً بالمراتين
 إلا ليقسما بالشوق والبين

ولقد أفادته هذه الأسفار علماً بأحوال الممالك الإسلامية وسياسة دولها ، ووصلته بالملوك والأمرء والوزراء ، وكونت له علاقات أدبية وعلمية ممتازة .

وكان من أسفاره ما أفاد به النجاة من الشر ، وهو سفره الأول مع أبيه من أصبهان إلى بغداد طلباً للأمن والسلامة فيها ، مذ كان ابن خمسة عشر عاماً ، فأقام فيها عشرة أعوام أفاد بها علمه في المدرسة النظامية والمدرسة الثمنية وفي لقاء العلماء والشعراء ، إلى أن رجع إلى أصبهان في سنة ٥٤٣ هـ .

ومنها ما أدى به فرضاً وشهد به منافع له ، وهو سفره في سنة ٥٤٧ هـ من أصبهان إلى

محمد بهجة الأري

الحجاز حيث حج بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، ثم عاد إلى أصبهان .
ومنها ما أفاد به علماً ونحياً وجاهلاً ومناصب ، وهي أسفاره في الأقطار العربية الكبرى :
العراق والشام ومصر . وذلك بعد عودته الثانية إلى بغداد في سنة ٥٥٩ هـ مع أبيه بنية
توطئها . فأصرف في هذه المرة إلى التخصص بالأدب العربي ، ومعاناة الشعر والنثر ، إذ
كان يبتغي بالسيرة الأدبية الظفر بمناصب الدولة ، وكانت الدولة العباسية ببغداد يومئذ لا تزال
على ما سبته لها الخلفاء الأوائل من رعاية الأديب الممتازين ومن إسناد مناصبها إلى البلغاء
والكُفءة من أرباب الواهب العالية ، فأستقل بعلم الأدب ومعاناة صناعة الكتابة والشعر ،
ليتخذ ذلك وسيلته إلى تسلم المناصب . فبدأ سلطته بالتقرب إلى الخليفة المعتفي لأمر الله ،
فدحه بقصيدة رفعها إليه عقيب أنكشاف كربة حصار بغداد برحيل السلطان محمد بن محمود بن
ملكشاه السلجوقي عنها ، وذلك ليبدله على نبوغه وكفايته ، فولاه الأعمال الجليلة . ثم
أختص بالوزير الخطير العسامة المحدث الفقيه عون الدين بن هبيرة الحنبلي ، فولاه نيابته عنه في
واسط وفي البصرة . ولما توفي ابن هبيرة مسموماً في سنة ٥٦٠ هـ ، نكب المهدي بالأعتقال في
الديوان ببغداد مع من أعتقل من أنصاره عدة أشهر . فلما عفي عنه ، لم تقلب له الإقامة ببغداد ،
فهجرت العراق إلى الشام ليعيش في كنف الدولة النورية ، وسلطانها يومئذ الملك العادل
نور الدين محمود بن أتابك زنكي ، وكان من أجل ملوك الإسلام عقلاً وعدلاً وتديراً وجهاداً
في سبيل الله . فلقبه مدبر دولته قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالترحاب ، وأثزه بالمدرسة
النورية الشافعية . وكان هناك الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين ، يعرف
أسرته ، فلما سمع بمقدمه خفت لزيارته ، فأهتز المهدي لهذه الحفاوة ، فدحه بقصيدة طويمة أولها :

يوم النوى ليس من عمري بحسوب ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

وكان أخوه أسد الدين شيركوه وأبنته صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر ، فبشره فيها
بولاية صلاح الدين للديار المصرية ، وتم ملك صلاح الدين مصر بعد سنتين ، فكان المهدي نظماً
ما في الغيب تديره . فشكره الأمير ، وأحسن إليه وأكرمه ، وقدمه على الأعيان ومسيره ،

كتاب الدولتين النورية والصلاحية

ووالاه العباد ، ووالى فيه وفي أخيه أسد الدين وأبنيه صلاح الدين أنشيدته العذبة . وأفادته هذه العلاقة من بمد في مؤتف أيامه ، إذ وصلتته بالدولة الصلاحية ، وجملته ثاني رجل فيهما يتصرف بسياسة البلاد ، وأولها الوزير المشهور بالقاضي الفاضل .

أما السلطان نور الدين ، فقد ألقى سمعه الى ما حدثه به وزيره الشهرزوري من فضائل العباد التي خبرها في مذاكراته له ، ومنها فقهه وبراعته في مسائل الخلاف والفروع ، وقدرته البالغة في الكتابة العربية والفارسية ، كما أصنى الى ما أنشده إياه من شعره في مدحه ووصف جهاده للفرنج ، فأعجب به ، ورآه في ديوانه منشئاً (لأستقبال سنة ثلاث وستين وخمس مئة في مكان كاتبه شاكر بن عبد الله المعري الذي أستمعى من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته) . ثم علت منزلته عنده ، فأعتمد عليه في خاص أمراره ، وسيره الى بغداد رسولا في أيام الستنجد بالله . ثم فوض اليه تدريس المدرسة النورية الشافعية ، فكان يتراحم الفضلاء في حضور دروسه ، ثم ولاء الإشراف على ديوان الإنشاء مضافاً الى كتابة الإنشاء .

وهكذا وجد على الأيام منه الإعزاز والتمكين ، وبلغ منزلة رفيعة لديه . وقد ذكر أنه حضر رسل الخليفة المستضيء بأمر الله عنده ، وقد نصوا على من يحضر في مجلسه ، وأغفلوا ذكر العباد ، فطلبه نور الدين ، وقام لقيام الرسل له لما حضر ، وقصد أن يعرفهم منزلاته .

ذلك ما ظفر به العباد في سفره الى دمشق . فلما توفي نور الدين رحمه الله واتجهت حاشية خليفته - أبنه الصبي الملك الصالح اسماعيل - الى نسيخ ظل العهد السابق ، وإبعاد رجاله بالإخافة والمضايقة ، ترك جميع ما هو فيه ، ولجأ الى السفر أيضاً .

فأرتحل الى العراق خائفاً يترقب ، مخلفاً بلاد الشام وراءه نهبةً المطامع : تنقسم الأمراء نواحيها ، ونطمع الفرنج في غزوها وأنزاعها من أيدي أهلها .

فما بلغ الموصل ، حتى مرض بها مرضاً شديداً ، فأقام ينتظر الشفاء ، ليستأنف السير الى بغداد ، أملاً في أستعادة مجده الداهب في ظلال الخلافة العباسية . فبلغه ، وهو في عقابيل الداء ، خروج السلطان صلاح الدين من مصر الى البلاد الشامية ، ليحفظها من الفرنج الذين كانوا

محمد بهجة الأري

يتأهبون لغزوها . فهاجبه الطرب اقصده ، لسابق معرفته وقديم وده ، طامعاً في العودة الى مركزه القديم في هذا العهد الصلاحي الجديد . فسار الى دمشق سالماً اليها طريق الصحراء ، وأدرك السلطان في حصن وقد فتح قلعها ، فحضر بين يديه ، وأنشده مدحه وأطال فيه وأجاد ، ولزم السلطان يرحل يرحله ويزل بزوله ، الى أن تم له ما أراد به بمعنى القاضي الفاضل وزير السلطان وترشيحه . وقد أستند في هذا الترشيح الى كفاية العهد العاليية في الأديب العربي والفارسي ، وحاجة الدولة الى كاتب وترجمان من نرازة . وأفاء السلطان عليه من رعايته ، وركن اليه بأسراره ، فتقدم الأعيان ، وضاهى الوزراء ، وأصبح الكاتب الثاني في الدولة الصلاحية . ثم عاش ما عاش في خدمته مصاحباً له في حضره وسفاره ، فكانت أسفاره معه ومع نور الدين الشهيد قبله لا تدخل تحت الحصر .

وأكبر ما يدل على اعتقاد قلبه على دمشق الأسفار ، تعاقبه بها وهو شيخ في عشرة الثمانين . وإذا أستثنت مسفاره ، وهو في هذه السن بعد وفاة السلطان ، من دمشق الى مصر ، فراراً بنفسه من عدوان شيباء الدين ابن الأثير الجزري وزير الملك الأفضل ، لأنه مسفر اضطرابي ألجأه اليه الخوف من الظلم والعدوان ، فلن أنسى خاتمة أسفاره من دمشق الى مصر أيضاً ، وبالعكس . وكان باعثه عليه في ذهابه الطرب والشوق ، وفي إياه الفرار بالنفس من الموت بالوباء أو الجوع . وهو قد سافر الى مصر بصحبة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، بعد أن أستأذنه بهذه الصحبة ، ليشهد حفلات إعراسه بمؤنسة خاتون أئمة السلطان صلاح الدين ، وولاية أبيه الملك العادل على عرش مصر مكان الملك المنصور بن الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين . فأقام فيها عدة أشهر أجفل بعدها من الوباء والجوع اللذين حسلا بمصر فيمن أجفل من الخلائق حذر الموت الى المغرب والحجاز والشام واليمن ، وعاد الى دمشق في طريق مخوف جداً وهو ينوء بالسنين الثماني والسبعين ، وما كاد يتجو من الموت في مصر ثم من خطف الفرنج الذين وقفوا على ساحل البحر في فلسطين بطريق الجبلين النكوبين ، ويبلغ دمشق منهوكاً مهدود القوة ، حتى روعته الزلزلة العظيمة الهائلة التي أمتدت في ساعة واحدة من صعيد مصر الى

كاتب الدولتين النورية والملاحية

أذربيجان ، فلم يلبث بعدها إلا أياماً ، وأدركته منيته في غرة شهر رمضان سنة ٥٩٧ هـ .
(ج) وثالث عناصر مكونات « شخصية » المهاد — مشاركته القوية للدولة والشعب في الحرب الهجومية الدفاعية التي أثارها على صعيد الشرق الأدنى بين الشرق والغرب مدى مثني عام . وهو قد عاش في ظلال الدولتين المجاهدتين : الدولة النورية والدولة الملاحية ، اللتين نهضتا بوجه هذا العدوان البربري ، ربع قرن قضاه في تثبيتها بلسانه وسنانه معاً ، إذ كان كاتباً للدولتين يصرف شؤونها الإدارية والسياسية براعته ، وجندياً مجاهداً مناضلاً من الطراز الأول يدفع عن الوطن موجات العدوان والبنى فيمن يدفع عنه من أبطال الكفاح المؤمنين .
شهد مع نور الدين حروبه مع الفرنج ، وشاركه في فتوحاته ، وطرب لأنتصاراته فتغنى بها ويطولته ، ناظماً أوصافه الجميلة بأحسن لفظ وأرقه ، حتى قال أبو شامة القدسي : « لم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي ، إلا ابن أسعد الموصللي ، إلى أن قدم المهاد الكاتب الشام في سنة اثنتين وستين وخمس مئة ، فتسلم هذا الأمر ، وعبر عن أوصاف نور الدين وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً » .
وسبب ذلك أنه كان في هذه الحروب مشاركاً وشاهد عيان ، وبين الشكلى والفأحة المأجورة فرق عظيم ا

وكذلك عاش ما عاش في خدمة صلاح الدين من بعد ، وكانت خدمته له أطول أياماً ، وهو مصاحب له في حروبه مع الفرنج ، وقد شهد معه جميع معاركه وغزواته ، إلا غزوة تخلف عنها ، وشارك بنفسه مع جيوشه في قهر الجيوش الباغية في أعظم وقائع التاريخ الفاصلة في القرون الوسطى بالأردن وفلسطين ولبنان ، ومنها معارك سيداء وبيروت وجبيل واللاذقية والسكرك وصفد وعمسقلاق وعكاء والناصرية وقيسارية وناپلس والقوطة وتبنين وحطّين وصهيون والقدس . وكان فتح القدس أعظم ما أطلق بلاغة المهاد في وصف مناقب صلاح الدين ، وغناء مسراته في تباشير الفتح المبين ، والأيام دول والدنيا لمن قلب .

إن هذا الجانب وحده من حياة المهاد الكاتب الشاعر المجاهد ، ليؤلف أجمل صورة له ،

وهو خليف بالدرس ، وأعماله حين تُجمَعُ مادته يتكوّن منه سفرٌ مستقلٌ يحفل بأروع معاني القوة والحريّة والجلال ، وما أحرى هذه الجوانب من تأريخنا بأن تُشارَ لأهل هذا العصر الغفوتين العافلين !

د) ورابع عناصر « شخصيته » ، إنتاجه الأدبي والتأريخي والأخلاقي . وكان مفطوراً على التأليف ، بدأه بتقيد الفوائد وتعليق النكت العربية مذ كان فتى ناشئاً يطلب العلم ببغداد ، من ذلك عنايتهُ بمناظرات أبي الوفاء علي بن عقيل الإمام الحنبلي الكبير والكنيا الهراسي الفقيه الشافعي وتعليقه منها فوائدها السكيرة ونكتها العربية ؛ لأنه وجد فيها كلاماً جزلاً ، وأسلوباً بديماً رائقاً ، ومنها جاً قوياً وافهماً . وأدلّ من ذلك على تعلقه بالتأليف وهو طالب شاب ، ترسدهُ مجالس الأمير العالم الواعظ البليغ المشهور المظفر بن أردشير العبّادي ، وكتابتُهُ هذه المجالس من لفظه ، ليتمسلي بدائمه وروائمه . وقد قدم هذا الأمير ببغداد رسولاً من السلطان سنجر إلى الخليفة سنة ٥٤١ هـ ، فأقام فيها مدةً طويلةً ، وجلس الوعظ بجامع القصر ودار السلطان ، وحضر الخليفة مجالسه ، ففتنه وفنّ الجماهير البغدادية بما يديه من سحره وبيدعه ، ولسكنهم جميعاً وقفوا من إعجابهم بمواعظه البليغة الشائقة عند حدود سماعها ، ولم يكن فيهم من يُعنى بتدوينها وكتبها من لفظه غير هذا الفتى الناشئ . ثم عاش العبّاد ما عاش والتأليفُ هجيراه ودينه ، ولعمركه قضى وهو ينظم قصيدة أو ينشئ رسالة أو يؤلف كتاباً .

وتنقسم كتب العبّاد وآثاره إلى أربعة أقسام :

أ - - تعليقات .

ب - - كتب مترجمة .

ج - - كتب تأريخية .

د - - شعر ونثر .

أ) أما التعليقات ، فهي أوّل ما تعلق به حين بدأ الأشتغال بالتأليف ، وقد بيّنت

كاتب الدولتين النورية والصلاحية

ما عرفته منها .

(ب) وأما الكتب المترجمة ، فإني عرفته منها كتابان نقلها من الفارسية الى العربية ، وهما :
ترجمة كتاب في تاريخ الدولة السلجوقية من تأليف الوزير أنوشروان بن خالد من أوسط عهد
نظام الملك الى آخر عهد طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وترجمة كتاب في الأخلاق لابن حامد
الغزالي اسمه « كيمياء السمادة » في مجلدين . وهو مرتب على أربعة عنوانات وأربعة أركان
للعوام المتتمسين طريق المعرفة ، وهي : معرفة النفس ، ومعرفة الرب ، ومعرفة الدنيا ، ومعرفة
القبلي . وترجمته لهذا الكتاب لا يعرف مؤرخوه شيئاً من أمرها ، وإنما ذكرها هو نفسه في
بعض كتبه مشيراً الى أنه ترجمه بأمر القاضي الفاضل في سنة ٥٧٦ هـ . ولعل له في الترجمة من
الفارسية الى العربية آثاراً أخرى جهلها أيضاً مترجموه ، فلم يعرضوا لها بشيء .

(ج) وأما كتبه التاريخية ، فقد أحتفل فيها بثقافة عصره وتأريخه السياسي والحربي
والاجتماعي ، وقدما تعرض فيما كتبه لغير عصره ، فدوت في « خريدة القصر وجريدة مصر »
وتذيلها المسعى بـ « السيل » أدب القرن السادس ما بين بلاد فارس والاندلس ، رواية ومشاهدة
ونقلاً من موارد صافية ، وبات ما كتبه وجمعه في هذا الباب وقد بلغ أكثر من عشرة أجلاد
مراجع الباحثين ، ولولا كتاباه هذان لكان تأريخ الثقافة الأدبية في هذا القرن مجهولاً عند
المؤرخين .

كذلك كتب تأريخ عصره السياسي وأحداثه الحربية والاجتماعية كتابة شاهد
عيان في الغالب ، لا يس السياسة وكتب عن السلطان ، وحضر معه الوقائع والحروب ،
وعالج برأيه وقلبه مشكلات الدول . وهو قد عاش في كتف الدولة العباسية ببغداد وواسط
والبصرة ، وخدم الدولتين النورية والصلاحية في الشام ومصر ، ورأى آخرة سلاجقة العراق
وكرديستان ، وشهد مصرع الدولة الفاطمية وخلافة الدولة الأيوبية لها في مصر والشام
وشارك في أعظم ما عرف في التاريخ القديم من حروب الشرق والغرب على ترى الوطن المقدس
وذاق لذة الانتصارات ، ثم فرغ لهذا وغيره فكتب فيه الكتب الضخام التي باتت كذلك

مراجع المؤرخين في أحداث القرن السادس الهجري مدى الأيام ؛ لأنها تميّزت بالرواية الصادقة ، وطول النفس ، لولا ما تعلّما به من أفعال السجع والجناس والترادف والإطناب . وأي مؤرخ يبحث في تاريخ الدولة السلجوقية ، يستغني عن كتابه « نصرة الفترة وعصرة القطرة » ؟ هذا الكتاب الذي ترجم بعضه من كتاب الوزير أنوشروان ، فهذه وأعمد فيه الصدق والصواب ، وجرّده من روح التشفي والأنتقام ، ثم زاد عليه بداية الدولة السلجوقية ، وذيله بما عاينه في عصره من حديث الأعيان وحادث الزمان .

وأي كاتب أو باحث يكتب في تاريخ الأحداث السياسية والحربية العظيمة في القرن السادس الهجري - في مصر والشام - لا يرجع إلى « الفتح القدسي » الذي أُرخ فيه العهد فتوحات السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وإلى « البرق الشامي » الذي دَوّن فيه حروب بطلاني الإقباد العظيمين نور الدين وصلاح الدين مع الفرنج وهو في سبعة مجلدات ، وإلى « عتبي الزمان » و « نحلة الرحلة » و « خطبة البارقي » وهي كتب متممة للبرق الشامي ؟

د) وأما الشعر ، فله فيه ديوان يدخل في أربعة مجلدات كبار ، وهو مفقود ، وقد نظمت ما تنثر في الكتب من شعره في جزء لطيف ، ولعلّي أوفق لطبعمه . وله أيضاً ديوان آخر صغير جميعه دوييت .

وأما النثر ، فله فيه ديوان رسائل ديوانية وسياسية في مجلدات ، وهو مفقود أيضاً ، ولكن في خزانة كتب نور عثمانية في استنبول نسخة من إنشاء أحد الكتاب في حدود سنة ٥٩٧ هـ كتب على ظهر الورقة الأولى إيماء ترسلات العهد السكاتب . وقد كتبت النسخة في القرن السادس بخط نفيس في ٩٩ ورقة من الحجم المتوسط ، ولها صورة شمسية في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

والكلام على شعر العهد ونثره ، يستغرق محاضرات .

هكذا أنفق العهد الكاتب عمره جداً وسعياً ونحسلاً وجهاداً وإنتاجاً ، فكان عاكفاً في

كاتب الدولتين النورية والصلاحية

العلم ، وزعيماً في الكتابة الفنية ، وقائداً في الشعر ، وحنيفة في التاريخ ، وإماماً في التأليف . نفع بواهبه المتعددة أمته حياً وميتاً ، صادقاً مخلصاً ، ولم يسخل عليها بفضله ، وكانت سيرته العملية العملية من حجج الإثبات لنبوغ الشرقي وكفاياته البارعة في مختلف مطالب الحياة على اختلاف المصور .

* * *

وبعد ، فقد كان عصر نور الدين وصلاح الدين من أزهى عصور القوة والبطولة والكفاح في تاريخنا المجيد ، وكان هذان المنقذان العظيمان عنوانين لذلك العصر في العلم والتقوى والسياسة العادلة وتدمير الكفر والجهاد في سبيل الله والسعي في تحرير الوطن من المغيرين ، ومن كان مثلاً لها في سمو الذات وجلال الصفات ، كان خليقاً بأن يختار رجاله من طراز العباد في الكفايات ، ومقياس عقول الرجال والدول اختيارها أعوانها ، وقد قيل :

قد عرفناك بأختيارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره

وبحسب المرء في معرفة أي عصر كان أن يتعرف سير رجاله وكفاياتهم وأخلاقهم ، ليتبين منها تلك الحقيقة ، ويضع دواه في الثغرة التي وضعت نفسها فيها

محمد مهجة الأثري